الحلم والتحلم ...

للاستاذ محمود عزت عرفة

— ٢ —

« إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، ومن يتخير الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه »

حديث شريف

معاوية بن أبي سفيان :

استبد معاوية بأمر الشام بعد إذ جنح إليه سواده ، وقامت بنصرته أجناده ؛ فناوأ بهم « علياً » على عرش الخلافة ، وأضرم على أهل البيت وأبناء العراق من شيعة أمير المؤمنين نار حرب عوان أعادت أيام الجاهلية جذعة بعد أن عفّت على ترائها أخوة الإسلام ، ومسحت جراحها يدُ الشريعة السمحة . ومهما يكن من شأن معاوية فلقد كان صحابياً جليلا عامر القلب بالإيمان ، زاخر النفس بالورع والتقوى ، أشدّ ما يكون خليفة حدباً على الإسلام والمسلمين ، وأعظم ما يكون خشية على هذه البنيّة الناهضة أن تتصدع وتنهار ، وهو يرى جوانح الحرب تعصف بقوائمها وتتحيف من دعائمها .

ولعله كان يسبيل أن يراجع أمر نفسه ، ويتدبر السبيل للخروج بالمسلمين من هذا المأزق الذى التاثوا فيه عند ما قُتل « علي » بيد ابن ملجم ، فاستقر زمام الأمور بيد معاوية ، وتدلت إليه قطوف النصر ثمراً جنياً .

ولم يصعب عليه بعد ذلك أن يعالج أمر الحسن بن علىّ بما يكفيه مؤنة قتاله ويدفع عنه شرّ خلافه ؛ فالتأمت صفوف المسلمين وأغمدت سيوفهم ، وسمى معاوية هذا العام عام الجماعة[1] وكانت مسرته بالغة بما آل إليه أمر هذا الخلف ، وثقته فى مستقبله عظيمة عظمَ قوته فى حاضره ، ثابتة ثبات كفاحه فى ماضيه ؛ حتى لأقبل غداة النصر على أعدائه من بنى هاشم باسط اليدين بالمنحة وبالعفو وهو يقول :

يا بنى هاشم : والله إن خيرى لكم لممنوح ، وإن بابى لكم لمفتوح ، فلا يقطع خيرى عنكم علة ، ولا يوصد بابى دونكم مسألة .

سلك معاوية نهجاً من التسامح امتلك به القلوب ، وبقدر اطمئنانه على ملكه كان تسامحه وإغضاؤه ، وعلى حسب مقدرته على الأخذ كان جنوحه إلى الإهمال والترك . يقول فى خطبة له مشهورة ألقاها بالمدينة عام الجماعة : « والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دَبْر أذنى وتحت قدمى » .

وكأنما كان يخجل معاوية أن يحول بين أعدائه وما يتشهّون من تناوله بألسنتهم ؛ بعد إذ تناولهم هو وجنوده غير راحمين طعناً وضرباً بأطراف الرماح وأسنة السيوف . ولقد دخل وهو خليفة على ضمضمة بن صوحان المبدى — وكان سجيناً عنده — فقال له ضمضمة فى حوار بينهما غير راهبٍ منه ولا خاش : أما والله مالك فى يوم بدرٍ مضرب ولا مرمى ، وما كنت فيه إلا كما قال القائل : « لا حلّى ولا سيرى » ولقد كنت أنت وأبوك فى العير والنفير ممن أجلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما أنت طليق ابن طليق ، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنى تصلح الخلافة لطليق ؟

فقال معاوية : لولا أنى أرجع إلى قول أبى طالب حيث يقول :

قابلتُ جهلهُمو حلماً ومغفرة
والعفو عن قدرة ضرب من الكرم
... لفعلتكم !

ولقد أسبغ معاوية عطفه على أهل الشام لسابق مأثرتهم عنده ، وزادهم على العفو واسع العطية وجميل الإقبال ، حتى لأفضل مرة بمائة ألف على أبى جهم بن حذيفة حين قال له : نحن عندك يا أمير المؤمنين كما قال عبد المسيح لابن عبد كلال :

نميل على جوانبه كأنا نميل — إذا نميل — على أينا
نقلّبه لنخبرَ حالتيه فنخبر منهما كرماً ولينا

وقسم مرة قُطُفاً (جمع قطيفة) فأعطى شيخاً من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه ، فحلف أن يضرب بها رأس معاوية

(١) كان ذلك سنة ٤١ من الهجرة ، وقتل على سنة ٤٠ هـ .

فأتاه فأخبره . فقال له معاوية : أوف بنذرك ، وليرفق الشيخ بالشيخ !

كان تحلّم معاوية إذن تكفيراً لما سبق من ضروب الأذى أو وفاءً لما مضى من سوالف الجميل ... ولقد أراب ذلك كثيراً من المؤرخين — ممن سجلوا حوادث عصره — حتى لاتّهموه فى هذا الحلم المتصنع ، ولم يثنوه له كفضيلة يحمد عليها ؛ وكان ذلك إما حقداً عليه وغمطاً لحقه ، وإما توسعاً فى استنباط سريرة نفسه ، واستكناه بواعث تصرفه ؛ جرياً على سنة للمتفلسفين والنقدة من أمثال الجاحظ ؛ فقد ورد فى كتابه البيان والتبيين[1] إنه قيل لشريك بن عبد الله[2] : كان معاوية حليما ! فقال : لو كان حليما ما سفه الحق ولا قاتل عليا ، ولو كان خليما ما حمل أبناء العبيد على حرمه ، ولما أنكح إلا الأكفاء . ثم يقول الجاحظ : وأصوب من هذا قول الآخر[3] : كان معاوية يتعرض ويحلم إذا أسمع ، ومن تعرض للسفيه فهو سفيه . وقال الآخر[3] : كان يجب أن يظهر حلمه ؛ وقد كان طار اسمه بذلك ، فكان يحب أن يزداد فى ذلك .

وكيفما كان الرأى فى حلم معاوية فقد وطد بهذا الخلق الكريم ملكه ، ومسح ببلسمه الجراح التى أسال دماءها ؛ ولم يكن ليلومه على هذا التصرف إلا غرٌّ مأفون ، أو نزق أرعن سفيه ، وكذلك كان ابنه يزيد الذى عتب على أبيه يوماً فقال : لقد أفرطت فى الحلم حتى خفتُ أن يعد ذلك جبناً (! !) فأجاب الوالد الحصيف : ليس مع الحلم ندامة ولا مذمة ...

أبو جعفر المنصور :

يعد الناس أبا جعفر مؤسساً لملك بنى العباس ، بما بذل فى ذلك من همة وأنفق من جهد ... لكن سبقه إلى تبوُّء عرش الخلافة أخوه أبو العباس السفاح ، ومن ثم يصطلح المؤرخون على تلقيب أبى جعفر بالمؤسس الثانى للدولة العباسية ، ولقد أفضى اللواء إلى يده بعد أخيه فنهض بأعباء الكفاح وحده ، وعنف على مناوئيه عنفاً مزق به أديمهم وفلّ حدهم ، إذ كانوا من القوة ومن الكثرة — وهو الضعيف بجدة ملكه القليل بعدة أنصاره — بحيث لا تجدى مع مثلهم المهادنة ، أو تدفع من بأسهم المطاولة والمصانعة . كان ملك بنى العباس كنبتة غضة لا تكاد تنهض على ساقها لتأخذ حظها من الغذاء والنماء ؛ إلا أن يحيطها بسياج متين من القوة والبطش يرد عنها كيد الموتورين من بقايا آل مروان ، وثورة الحاقدين من شيعة آل هاشم ، وسائر من يتربصون به الدوائر من العرب . ولم تكن قد تهيأت بعدُ لخلفاء بنى العباس تلك القداسة التى حظوا بها على تطاول السنين ، وإنما كانت أكثر العيون تنظر إليهم كدهماء ارتفعوا على ظبات السيوف إلى تلك المكانة العلية التى بلغوها ، فلا غرو إذن أن تكون ظبات السيوف وحدها هى التى تحفظ عليهم هذه المكانة ، وتقرها فيهم وفى أحفادهم من بعدهم[1] . قال عبد الصمد بن على العباسى للمنصور يوماً : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو . فقال المنصور : لأن بنى مروان لم تَبْلَ رحمهم ، وآل أبى طالب لم تغمد سيوفهم ، ونحن بين قوم رأونا أمس سوقة واليوم خلفاء ، فليست تتمهد هيبتنا فى صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة !

تلك كانت سياسة المنصور التى أخذ نفسه باتباعها مواجهة منه للمخاطر التى تتهدد ملكه ؛ ولقد بعثته الريبة على أن يبسط يده بالعدوان إلى أقرب الناس إليه ، من وزرائه وخاصته وأعوانه فضلا عن أعدائه والخارجين عليه . فاستقام للمنصور الأمر ، وعنت له لوجوه رغبة منها أو كرهاً ، حتى لعادت إلى نفسه بعد حين تلك الطمأنينة التى تفيء معها النفوس إلى جانب من الحلم والإسجاح ...

---

(١) صفحة ١٦١ من الجزء الثالث . طبعة السندوبى .

(٢) كان شريك بن عبدالله النخعى عالما فقيها تولى القضاء بالكوفة والأهواز أيام المهدى ، ثم عزله الهادى . وقد ولد سنة ٩٥ هجرية بمدينة بخارى وتوفى بالكوفة عام ١٧٧ هـ .

(٣) لعل الجاحظ إنما كان يعنى نفسه بهذا الآخر الذى يحكى عنه .

(١) يضاف إلى هذا أن استيلاء العباسيين على الخلافة كان ينطوى على الخيانة لأبناء عمومتهم العلويين ، إذ كانت الدعوة إنما بدأت باسمهم منذ عهد بنى أمية حتى سلبهم العباسيون حقهم فيها . ويدل على تبلور هذه الفكرة وشدة استيلائها على الأذهان ما حاوله المأمون فيما بعد من تحويل الخلافة إلى على الرضا بن موسى الكاظم ، حتى صده العباسيون عن ذلك باختيارهم عمه إبراهيم بن المهدى فى بغداد ، وقد رجع المأمون عن رأيه وتخلص من على الرضا بطريقة غامضة ثم قدم بغداد ، فلاذ عمه بأذيال الفرار حتى وقع القبض عليه عام ٢١٠ هـ .

وكأنما كانت نفس المنصور قد غثيت لمنظر هذه الدماء التي أفاضها أنهاراً ؛ أو عادت إليه ثقته ووقاره بعد أن طاحت بهما رهبة الحوادث ، أو هو قد بلغ من نفسه هذا الزجر والتقريع الذي كان يلقاه به أمثال عبد الصمد بن علي من فضلاء أصحابه ، وذوي الرأي والنصيحة فيهم ؛ أو كأنما استشعر المنصور قلق الرعية من هذا الكابوس الجاثم فوق صدورها ، ورأى مرجل الحفيظة والسخط يغلي في قلوب الناس فمال إلى شيء من التحلم بقدر ما استراحت إلى ذلك نفسه ، وكان عجيباً — عند النظرة غير الدقيقة — أن يصدر مثله عن مثله !

ولعله كان لا يزال يعالج هذا الأمر من نفسه ، ويتكلف الدربة عليه ، ويتجرعه ولا يكاد يسيغه ... عند ما اعترضه المعترض في خطبة له وهو يذكر بالله تعالى فقال : أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين !

فكان من جوابه أن هش للاعتراض وبش ، وذكر الله واستعاذ به ثم قال : وما أنت يا قائلها فوالله ما الله أردت بهذا ، ولكن ليقال قام فلان فقال ، فوقف فصبر ، وأهون بها من قائل لو كانت . وأنا أنذركم أيها الناس أختها ! فإن الموعظة الحسنة علينا نزلت وفينا ثبتت ... ثم أخذ بقائم سيفه وقال : إن بكم داء هذا شفاؤه ، وأنا زعيم لكم بشفائه ، فليعتبر عبد قبل أن يعتبر به ، فما بعد الوعيد إلا الإيقاع ؛ وإنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله .

كان المنصور — وقد ظفر برؤوس أعدائه — لا يضيره أن يعفو عن أذنابهم ، وأن يضفي ثوب حلمه على من نهض مع الرؤساء من أوشاب الناس وعامتهم ، لأن إشمال العقوبة لا يخلو من الظلم ، والعفو عن العامة — وهم سريعو النفرة سريعو الفيئة — أقوم بأسباب الملك وأجمع لشمل الرعية ، وأكفل بتقدم الحياة وانتظام العمران .

قال المنصور يوماً لجعفر الصادق : قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربي — يعني عند ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي فيهم[1] — وقد رأيت أن أبعث إليهم من يعور عيونهم ويحمر نخلهم . فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين ! إن سليمان أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلي فصبر ، وإن يوسف قدر فغفر ، فاقتد بأيهم شئت ، وقد جعلك الله من نسل الذين يعفون ويصفحون . فقال أبو جعفر : إن أحداً لا يعلمنا الحلم ، ولا يعرفنا العلم ! وإنما قلت هممت ولم أفعل . وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الإساءة إليهم ...

وتحقيقاً لهذه الأغراض البعيدة نفسها كان عفو المنصور عن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، فإنه كان ممن شق عصا الطاعة ، وداهن في شأن إبراهيم بن عبد الله العلوي[1] . فلما صار إلى المنصور أمر الربيع فخلع سواده[2] ، ووقف به على رءوس اليمانية في المقصورة في يوم الجمعة ، ثم قال : يقول لكم أمير المؤمنين ، قد عرفتم ما كان من إحساني إليه وحسن بلائي عنده ، والذي حاول من الفتنة والغدر والبغي وشق العصا ومعاونة الأعداء ... وقد رأى أمير المؤمنين أن يهب مسيئكم لمحسنكم ، وغادركم لوفيكم !

وحمل إلى المنصور عبد الحميد بن ربعي بن خالد بن مِقْداق فقال : لا عذر فأعتذر ، وقد أحاط بي الذنب ، وأنت أولى بما ترى . قال : لست أقتل أحداً من آل قحطبة[3] بل أهب مسيئهم لمحسنهم وغادرهم لوفيهم .

وعفا المنصور عن عمه عبد الله بن علي بعد أن تمت هزيمته على يد أبي مسلم الخراساني ، واكتفى باعتقاله حتى مات في محبسه[4] .

وهكذا بدأ المنصور قاسياً شديد القسوة ، ثم تكلف من التحلم ما أفضى به إلى قريب من الحلم ، عند ما استتب له الأمر وبلغت الطمأنينة من نفسه مبلغها .

(يتبع)

محمود عزت عرفة

---

(١) يلقبونه النفس الزكية . خرج بالمدينة عام ١٤٥ هـ وقتل في رمضان من نفس السنة ؛ قتله عيسى بن موسى قائد جيش المنصور .

(١) أخو النفس الزكية . دخل البصرة وأعلن البيعة لأخيه ، ثم استولى على الأهواز وواسط . قتله عيسى بن موسى في موقعة باخمرى ، لخمس بقين من ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ .

(٢) شعار العباسيين ومن على ولائهم .

(٣) كان قحطبة بن شبيب الطائي أحد الدعاة العباسيين ومن نقبائهم الاثني عشر ، عقد له إبراهيم الامام اللواء بيده ، وصرفه إلى أبي مسلم في خراسان (سنة ١٠٣ هـ) فأبلى في قتال الأمويين البلاء الحسن .

(٤) كان عبد الله بن علي والياً على الشام ثم ثار عام ١٣٧ هـ طمعاً في الخلافة ، ولما هزم لجأ إلى أخيه سليمان بن علي بالبصرة فأسلمه إلى المنصور سنة ١٣٩ ، وظل في سجنه حتى مات سنة ١٤٧ هـ